فصول من سيرة مخيم اليرموك 26

فصول من سيرة مخيم اليرموك (26)

للكاتب ثائر عودة

كان أول لقاء لي مع الروائي والسينارست حسن سامي اليوسف أواخر الثمانينيات في بيته الذي يقع في منتصف شارع صفد، ومن شجعني على ذلك اللقاء عمي وصديقي رسلان، بعد أن تناقشنا ضمن جلساتنا الثقافية المتعددة حول مسلسل حسن الشهير (شجرة النارنج 1989) الذي كان يُعرض في ذلك الوقت ولاقى صدى واسعاً بين أوساط العامة والخاصة.. واقترح عمي رسلان أن نذهب إلى بيت حسن حيث كانت تربطه به صداقة قديمة وحميمة، والحقيقة كانت لدي رغبة في لقائه والحوار معه عن قربٍ لمليون سبب، أولها أنه أخو الناقد الكبير يوسف سامي اليوسف وثانيها أنه ابن (لوبية العظيمة) وثالثها صلة القربى بيني وبينه من طرف أمي ورابعها قرب بيته من بيتنا وخامسها وعاشرها ما لاحظته على مسلسله من اختلاف نوعي عن باقي مسلسلات الدراما السورية والمصرية، وكان أسلوبه أشبه بأسلوب الروائي والسينارست أسامة أنور عكاشة وخاصة في (ليالي الحلمية) بأجزائها المتعددة، والجامع بينهما هو استخدام تقنيات الرواية في العمل الدرامي، وأهمها الغوص في مكنونات الشخصيات واستبطان دواخلها وصراعاتها بخلاف الكثير من الأعمال الدرامية التي تكتفي برسم الشخصية الجسماني بغرض الفرجة وإعطاء صورة خارجية للمتلقي وتركيب أحداث ذات حبكات ساذجة ومشوقة تشد القارئ لمتابعة حكاية مسلية لكنها سطحية خالية من أي عمق أو تحليل (الكواسر – الجوارح - البركان...). لقد تميز حسن بثقافة هائلة وهادئة في مجال اختصاصه ذات روافد متنوعة، أولها: دراسته أصول السيناريو والدراما أكاديمياً في موسكو ونيله درجة الماجستير في هذا الاختصاص سنة 1973 على ما أظن، ثم عاد إلى دمشق وعُيِّن في المؤسسة العامة للسينما رئيساً لدائرة النصوص، وهو متابع فاعل للحركة السينمائية في العالم لا يترك فيلماً أجنبياً أو عربياً إلا يحدثك عنه ويعطي رأيه فيه، وكان عضو لجنة التحكيم الدائم في مهرجان دمشق السينمائي منذ انطلاقته وعضو لجان تحكيم أخرى في القاهرة والجزائر والمغرب وغيرها.. ثانيهما أنه: قارئ نهم وحافظ لشعر المتنبي ودرويش بالتحديد، بالإضافة إلى تأثير الأديب الشهيد غسان كنفاني معلمه الروحي، ومعلمه في المدرسة (مدرسة الاليانس).. كما كان يستهويه الذاتي من الشعر أو النثر إلا أن مشروع حياته الذي قاتل من أجله هو الرواية فكان يكتب للسينما أو التلفزيون ليصرف على الرواية، وأذكر كم كان حزيناً كما أباح لنا في لقاءاتنا التالية حين نشر روايته الأولى (الفلسطيني) سنة

1988 ولم تجد الاهتمام أو الصدى أو الانتشار الذي أراده على الرغم من أنه كان زاهداً في الشهرة والأضواء.. وقد كتبت عن تلك الرواية دراسة نقدية مطولة بعنوان (الإيقاع في رواية الفلسطيني) ونشرتها في مجلة (النافذة) سنة 1991 وخلاصة تلك الدراسة هو الحديث عن الإيقاع الذي ضبط حركة الشخصيات والأحداث في تلك الرواية بطريقة محكمة بحيث لا تنفلت خيوط الحكاية أو تترهل.. لكن حسن كان يعيش مفارقة موجعة فأي مسلسل جديد له يلقى شهرة واهتماماً وينتقل من فضائية عربية إلى أخرى ويحصد الجوائز في المهرجانات العربية في دمشق ودبي والقاهرة وغيرها في حين أن رواياته لا تلقى ذلك الاهتمام إلا من نخبة محدودة.. وما زلت أذكر الحصاد الذي حققه مسلسل (الانتظار) و (أيامنا الحلوة) و (الغفران) وأخيراً (الندم) في حين أن تأثير رواياته الرائعة ذات المعمار الفني المحكم والإنساني بقي محدوداً فبعد (الفلسطيني) نشر (الزورق) و (رسالة إلى فاطمة) و (بوابة الجنة) و(فتاة القمر) و (على رصيف العمر) وأخيراً (عتبة الألم) وهي مذكراته حين عاش في مدينة دمشق زمن الحرب والخوف... كان يحاورنا في الرواية ونقد الرواية ولا يعنيه كثيراً أن يُكرّس اسمه بصفته كاتب سيناريو (رغم أنه أصبح أهم كاتب سيناريو في الدراما السورية وربما العربية)، وكم أباح لنا شو يعني كاتب تلفزيوني.. مجرد حكواتي يسلّي الناس ويضحكهم ولا يستنفر عقولهم.. الكتابة للتلفزيون مهنتي التي يجب أن أعمل بها وأتقاضى الأجر.. أما الرواية فهي شغفي وعشقي.. وبمراجعة متأنية لكل ما قدمه من أعمال درامية ستجد تميّزها عن غيرها لأنه اشتغل على الرواية التلفزيونية (إن جاز المصطلح) وفي ذلك نوع من جائزة الترضية للشغف الذي كان لديه كي تصل روايته إلى المتلقي، لذلك كان يكتب عبارة مهمة في شارة أغلب أعماله الدرامية (مأخوذة عن رواية كذا للكاتب نفسه) إلا أن الكثيرين لم ينتبهوا إليها.. كان حسن وفياً لفلسطين والمخيم وكان لديه مشروع كتابة عمل طويل جداً يؤرخ فيه لليرموك بكل ما فيه ومن فيه.. كما كان عاشقاً وفياً لدمشق عشقها وعشق منها وتزوج ياسمينة دمشقية وعشق ياسمينة ثانية وثالثة ورفض كل محاولات الإغراء للخروج من دمشق من أهله وأصدقائه وزملاء العمل لكنه رفض ولم يغادرها خلال سني الحرب كلها.. لقد تعلمت من حسن كيف تكون مثقفاً ممتلئاً وهادئاً دون ضجيج أما الشهرة فليست شيئاً على الرغم من أنها أتته دون أن يسعى إليها...(يتبع)